مجلة ميلاف للبحوث والدراسات
المجلـد 6 العـدد 2 / ديسمبر 2020
ص ص: 46- 59

بدايات التمدن وتحولات بنية الأسرة الصحراوية: من مسكن العائلة إلى المساكن "المستقلة"

The Beginnings of Urbanization & the Transformations of the Desert Family Structure: from the Family Home to the 'Independent' houses

قصي عطية

جامعة قاصدي مرباح ورقلة (الجزائر)، koussai.attia@gmail.com

الاستلام: 10/ 2020/10 القبول: 2020/11/08 النشر:2020/12/31

ملخص:

إن مجموع التحولات التي تشهدها مدينة ورقلة عبر تجلياتها الضمنية وتفرعاتها الثقافية، لها أثر واضح على بنية الأسر الممتدة كنتاج حتمي للسلوك الحضري وانعكاسه الثقافي والاقتصادي على مظاهر الأنماط الحياتية الاجتماعية التقليدية للأفراد والجماعات، وسعيهم نحو إعادة بناء نماذج قيمية في علاقاتهم الاجتماعية الجديدة كاستجابة مؤقتة لأليات التحضر والاندماج ، هذه الصيرورة الدينامية التي يسلكها الفاعلون في الفضاء الحضري للواحة، تفتح لنا المجال للكثير من التساؤلات التي يجب علينا الإسراع في الإجابة عليها بالاعتماد على مقاربات الأنثروبولوجيا الحضرية والتفاعلية الرمزية، التي تأسس بعداً أعمق في تحليلنا لخطاب الفاعلين، والمبحوثين، باختلاف انتماءاتهم العرقية وتعدد مشاربهم الإيديولوجية، نظراً لما يحتويه النسيج العمراني الحديث من استراتيجيات معقدة تمارسها المجموعات الاجتماعية في حيازتها للفضاءات الصحراوية، في الكثير من التقاطعات المركزية المختلفة لكل من السكان المحليين والبدو المتمدنين من خلال خطاباتهم الثقافية والمجالية .

الكلمات المفتاحية: التمدن، التحولات، الأسرة، السكن، الفضاء الصحراوي .

Abstract:

The totality of the transformations taking place in The City of Ouargla through its implicit manifestations and cultural ramifications, has a clear impact on the structure of extended families as an inevitable product of urban behavior and its

cultural and economic reflection on the manifestations of traditional social lifestyles of individuals and groups, and their quest to rebuild value models in their new social relationships as a temporary response to the mechanisms of urbanization and integration, this dynamic process that actors in the urban space of the oasis, it opens the door to many questions that we must quickly answer based on the approaches of urban anthropology and symbolic interactive , which has established a deeper dimension in our analysis of the discourse of actors, and researchers, with different ethnic affiliations and multi-ethnic ideological backgrounds , due to the complex strategies of the modern urban fabric practiced by social groups in their possession of desert spaces, in many different central intersections of both local and urban bedouins through their cultural and field discourses.

Keywords: *Urbanization, Transformations, Family, Home, Desert Space.*

مقدمة:

إن جملة الإحصائيات التي تقدمها لنا مديرية التعمير والهندسة المعمارية والبناء أثناء زيارتنا الميدانية سنة 2018، تبين بوضوح حجم زيادة النسيج العمراني من خلال عمليات التعبئة المتواصلة في المدينة، سواء ما تعلق بالبنايات المشيدة من طرف الأفراد والجماعات الفاعلة في المجتمع الحضري الجديد، والتي تمتد من نواة المدينة إلى هوامشها مرورًا بالكثير من الأحياء الحديثة المتشكلة في منطقة الرويسات وبني ثور وأحياء المخادمة و سعيد عتبة وحي تازغرارات وسعيد 1 وصولا إلى حي النصر (الخفجي)، كذلك مجموع البنايات المشيدة من طرف الدولة في صيغ كثيرة ومتنوعة حسب ما تقتضيه شروط العقد والملكية، ونوع العمل الخاص بالمستفيدين من هذه الصيغ (سكن تساهمي، سكن اجتماعي، سكن ترقوي مدعم، سكن وظيفي ... إلخ)، حيث نجد عدد الصيغ المسجلة تتجاوز 36974 وحدة سكنية منذ سنة 2005 إلى غاية سنة 2019، منها 24495 وحدة جاهزة و10068 وحدة في طريق الإنجاز، هذا الامتداد العمراني الذي يمكننا ملاحظته عبر تقنية Googl Ereth هو نتاج النمو الديمغرافي السريع الذي تجاوز سنة 2017 حدود 34131 أسرة في مدينة ورقلة (مديرية التعمير والهندسة المعمارية والبناء، ورقلة، زيارة ميدانية 2018) .

إن هذا التشكل العمراني المتزايد الذي نشاهده من خلال مجموع الإحصائيات التي تقدمها مديرية السكن عبر مراحل عديدة لا يمكننا حصرها في هذا الموضع بالذات،

نظراً لتشعبات الفضاء الصحراوي لمدينة ورقلة وتقاطعاته السوسيومجالية مع مجموعة الوافدين الجدد التي أوجدها واقع التحضر وساهم في تغذية نسيجها السكني بعد انفتاح المدينة على غيرها من المدن، كقطب جاذب للوافدين إليها من الأرياف القريبة والمدن المجاورة، وكذلك من المدن الجنوبية والشمالية مؤخراً بعد انتمائهم إلى الكثير من المؤسسات والهيئات الاقتصادية، والاجتماعية الحكومية والخاصة، هذا الاندماج في التركيبة الاجتماعية للواحة أدى إلى خلق المزيد من الفضاءات السكنية الغير نظامية في التسيير الحضري، أحدثت الكثير من التشوهات العمرانية التي حالت دون اكتمال الكثير من مشاريع التنمية المستدامة داخل المجال الصحراوي، هذا الانفلات العمراني هو مصدر إلهام الباحث الأنثروبولوجي في اقتفاء أثر هذه التحولات على بنية الأسرة الصحراوية، ومدى فاعليتها وتأثيرها في المجتمع الحضري الاستهلاكي الحالي، الذي أفرزته المدينة بكافة حيثياتها الاقتصادية وتجاذباتها الاجتماعية والثقافية وحتى السياسية، نجد أنها تساير الظاهرة الحضرية في الفضاءات الطبيعية الصحراوية المميزة ، فواقع التصنيع واستغلال الثروات الطبيعية (النفط، الغاز، مواد طاقوية أخرى) وتأثيرها على البنية الإيكولوجية للمدينة عبر عمليات التعبئة العمرانية، خلق بدوره سلوكيات وتفاعلات يأخذها الأفراد من هذا النمط المعيشي الجديد، يشير تالكوت بارسونز إلى أن " ... المجتمع العصري المتحضر المتفاضل هو تعبير عن قيم مشتركة، إنه من وجهة نظره مجتمع عقلاني تسيطر فيه قيم العمومية والانجاز وتدفع هذه القيم المجتمع إلى الفعل العقلاني" (محمد عودة، (د.ت)، ص 130)

إن مفرزات الظاهرة الحضرية الصحراوية تطرح العديد من التساؤلات في تحليلنا لثقافة السلوك الحضري بين سوء التنظيم وإعادة التنظيم للأنماط الحياتية المميزة لهذا الفضاء بالذات، إذا وجب علينا كمهتمين بأثر هذه التحولات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية وحتى السياسية الآنية على بنية الأسرة والعلاقة الجدلية بينها وبين تحولات السكن، وذلك بالارتكاز المنهجي والمفهمي الذي يمكننا من فهم تركيبة هذه البنى الإجتماعية وأنساقها القرابية ومدى تأثرها بالتحولات العمرانية في نقطتين أساسيتين :

أولاً: نسق السكان المحليين "الوراقلة" من الأسر الممتدة إلى الأسر النووية

ثانياً: نسق البدو المتمدنين من الأسرة الممتدة إلى الأسرة النووية

1. نسق السكان المحليين "الوراقلة" من الأسر الممتدة إلى الأسر النووية :

إن الانطلاق من هذا التساؤل الجوهري الذي يفضي إلى تحديد ما نحن بصدد دراسته الآن حول مضامين تحولات بنية الأسرة وعلاقتها بتحول السكن يحيلنا في حيثياته ومعطياته النظرية والإمبريقية إلى فهم وتحليل سياق العلاقة الجدلية بينهما، هذ التساؤل الذي يشغل بال المهتمين بالمجال الحضري، الأنثروبولوجي، والسوسيولوجي من ناحية أخرى، " إذا كانت الأنثروبولوجيا مهتمة بشكل متزايد بمشاكل التطور الاجتماعي في البلدان المتخلفة، فقد تحولت في نفس الوقت إلى دراسة المجتمعات المتطورة (Dorothy Crozier, 1965, P604-605) في معرفة وتحليل ظاهرة اندماج المجموعات الاجتماعية في النمط المعيشي الحضري، على اختلاف موقعها الجغرافي وانتماءاتها العرقية، في انتاجها للقواعد والقيم المنظمة للسلوك الفردي، والجماعي، داخل البيئة الحضرية الحديثة، إن تفكيك هذه المعطيات التي أوجدها الإنسان الحضري الآن تستدعي منا الحذر الإبستيمولوجي في مرافقة هذا التنظيم الاجتماعي المتذبذب في الفضاءات الصحراوية، لذلك لا يمكنا الانطلاق من قوالب جاهزة في إسقاط قراءات وتفسيرات البعد الإيكولوجي لمدن الشمال الجزائري وتأثيره على التغيرات الاجتماعية في هذه المدن مباشرة على المجتمعات الصحراوية، إن الارتكاز النظري المحمل بالعديد من التقنيات والأدوات يمكنه تفعيل آليات البحث الإثنوغرافي و التنقيب الإثنولوجي في هذا المجتمع بالذات نظراً لخصوبة ميدانه، وقلة الباحثين والمهتمين به في هذا الجانب من الدراسة، لذلك وجب علينا كباحثين أن نعيد ترتيب أولويات البحث والتنقيب انطلاقاً من الهيكل البنيوي للقبيلة والعشيرة في تتبع التحولات المختلفة ومرافقة تأثيرها على العلاقات الإجتماعية التقليدية داخل الأسرة، يفترض البنيويون الرمزيون مثل كلود ليفي شتراوس (1967) وجود "هياكل مخفية" تظهر ديناميكياتها المتأصلة، وبالتالي فهي مستقلة عن التأثيرات من الظروف الاقتصادية الخارجية (Ulf, Himmelstrand, P 241 (1981,

لاشك أن ارتباط الأسر الممتدة بوجود الواحة له عدة دلالات في المجتمع الصحراوي، باعتبارها الشريان الرئيسي لنمط الأنشطة الاقتصادية التقليدية، كون هذه البنية البشرية رأسمال لا يستهان به في الحياة الاجتماعية، فعلاقة الأسرة بالواحة هي علاقة جدلية تكاملية بينهما تفضي إلى معطى واضح مفاده "أن ذوبان الأسر الممتدة هو بالضرورة

تمهيد لذوبان الواحة (واحة النخيل)، هذه الحيثيات نشاهدها في واحة ورقلة بكل تفاصيلها ومفرزاتها الحديثة، إن دور الأسرة الممتدة لدى غالبية الأفراد بالغ الأهمية يتعدى كونها رأسمال بشري اقتصادي واجتماعي إلى اعتبارها كيان عاطفي له رمزياته في مخيال الجماعة الاجتماعية، ودلالاته في الممارسات الثقافية المتنوعة، فهي وحدة إنتاجية بامتياز، تمثل الوعاء الثقافي الذي يمكن من خلاله تجسيد روح الانتماء والهوية والقيم الاجتماعية والأخلاقية، يطلق عليها السكان المحليين اسم العاني ويقصد به العائلة الكبيرة التي تجمع بين الجد والجدة وأولادهم وأحفادهم وقد يتجاوز ذلك إلى العم والعمة أو الخال والخالة، " ...إن ظاهرة الاندماج القرابي، تعتبر من أهم المؤثرات، في العديد من الجوانب المتعلقة بحياة المجتمعات القروية (Thevillage) والريفية (Rural) لهذا نجدها من العوامل المؤثرة بوضوح، على نسق البنى العمرانية، الزراعية لهذا المجتمع، حتى أصبحت تحاكي نمطية (Stereotyped) العمران السكاني (علي حسن الصغير، 2018، ص 141)، فالشكل الهندسي لنسيج العمران التقليدي يوضّح مكانة وأهمية الأسرة الممتدة لدى المجتمع الواحاتي في الصحراء .

لكن ما لا يمكن إغفاله أو تجاهله هو ملاحظة إعادة تشكل العلاقات الاجتماعية التقليدية بعد الصراع الذي عايشته المجموعات الاجتماعية الصحراوية في فهمها للتمدن، وتسطيرها لقواعد السلوك الحضري الثقافي والقيمي، حسب تحليل خطاب الفاعلين المنتمين إلى السكان المحليين في رؤيتهم للظاهرة الحضرية وتعايشهم معها، لذلك أرى أن نظرتنا قاصرة في هذا الموضوع بالذات إذا أغفلنا الرجوع إلى فترات ما قبل الحضرية في مدينة الواحة، واقترابنا أكثر من مفاهيم القبيلة والعشيرة وارتباطها بالواحة منذ عقود باعتبارها مكون اجتماعي هام لا يمكننا إلغائه أو غض الطرف عن تأثيره في آليات الضبط والتنظيم الاجتماعي الحالي، إن " البنى المجتمعية هي ركيزة اللاوعي للفكر والعلاقات الاجتماعية، فهي بنى تحدد تجريبيا على شاكلة الجماعات أو الأفراد المختلفين، الذين يعطون للمجتمع بنيته : مثل العشائر والأنساب وكبار القوم ورجال الدين (فيليب لا بورت تولرا، جان بيار فارنييه، 2004، ص 61)، فالملاحظ هنا يجد أن المصير المشترك الذي كان يربط أواصر هذه الجماعات الاجتماعية بدأ في التلاشي والضمور في الظاهرة الحضرية في بادئ الأمر، مما أدى إلى التحول في تركيبة البنية القبلية وتصدع هيكل نسيجها العمراني كاستجابة مؤقتة للسلوك الحضري وآلياته

الاجتماعية والثقافية والقيمية التي تؤثر في استمرار التضامن الآلي للجماعة، يرى طوماس وزنانيكي أنها حالة من سوء التنظيم الاجتماعي المؤقتة تحاول بعدها الجماعة إعادة تنظيم نفسها (réorganisation) (عبد الرحمن المالكي، 2016، ص 113)، هذه الحالة من الأنوميا الاجتماعية هي ردة فعل يمكن قياسها من خلال تحولات بنية الأسرة الصحراوية، فتراجع دور الأسر الممتدة في عمليات الضبط الاجتماعي أدى إلى ظهور قيم اجتماعية جديدة يغذيها الرأي العام بدل الجماعة الاجتماعية والقانون بدل السلطة التقليدية، يراها البعض من المبحوثين قيم أكثر نضجاً في تحقيق الحرية الشخصية والاختيارات الثقافية، بعيداً عن الرقابة التقليدية للجماعة الاجتماعية، يقول إبراهام ماسلو " أي الرغبة في أن يصبح الفرد كل ما يمكن أن يكون، أو كل ما تؤهله له إمكانياته أن يكون (طلعت إبراهيم لطفي، 2007، ص 108)، لذلك قمنا بجمع عدد من المعطيات حول اندماج المجموعات الاجتماعية في مفرزات الظاهرة الحضرية الصحراوية، حتى نتمكن من فهم مساراتهم الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وعلاقتها بتحولات السكن وبنية الأسرة :

جدول (01) : نوع المهن والوظائف لدى المجموعات الاجتماعية في مدينة ورقلة

نوع المهن و الوظائف	الفلاحة	التجارة	المؤسسات الخاصة	المؤسسات الحكومية	مهن أخرى	لا يعمل	المجموع
السكان المحليين " الوراقلة "	4	2	4	11	12	7	40
البدو المتمدنين	3	9	2	8	6	2	30
الوافدين الجدد	0	0	2	8	0	0	10
المجموع	7	11	8	27	18	9	80

المصدر : تحقيق ميداني ، انجاز الباحث 2018،2019

إن تحليل مضامين هذه المعطيات يأخذ بأيدينا إلى مجموع التأثيرات التي أوجدها واقع التحضر في تفتيته للعائلة الكبيرة وانقسامها إلى أسر حديثة (نووية)، بفعل انتشار هذه الأنماط من القيم والعلاقات الجديدة، إننا الآن أمام براديكما التداخل بين القديم والحديث، بين التقليدي والمعاصر في حوض مدينة ورقلة، مفاهيم سيكولوجية يصعب تفسيرها في

إنتاج وإعادة الإنتاج لاستراتيجيات الأسرة في التشكل العمراني الحديث، نلاحظها من خلال جملة المقابلات التي قمنا بها مع أفراد ينتمون إلى مجموعة السكان المحليين منهم من يعيش داخل القصر رغم هشاشة بنيته المادية في أحياء لالة منصورة، الميزاب، توراست، بايدير، وكذلك أحياء بني واقين في كل من دقيش، زنزلة، باب رابعة، بابا حرزي ، بالغلان، باعياد، باهداج، وأحياء بني سيسين في كل من سيدي بلوفا، سيدي حفيان، الموكف، بوسحاك، أكضي، بوعمران، هذا التصدع الواضح الذي نشاهده في البنية العمرانية للقصر يرجع في الأساس إلى قدم مكوناته التي تآكلت بفعل العوامل الإيكولوجية ، هذا التآكل أوضحته لنا مديرية التعمير والهندسة المعمارية والبناء في احصائها للسكنات الغير صالحة (précaires Logements) داخل القصر، "حيث بلغ عددها 781 سكن إضافة إلى 395 سكن آخر مهدد بالانهيار (Logements ruines) من أصل 2138 وحدة سكنية تقليدية داخل القصر العتيق (مديرية التعمير والهندسة المعمارية والبناء، ورقلة، زيارة ميدانية 2018)، لكن ما يثير الفضول المعرفي أن أغلب أصحاب هذه السكنات الهشة والمهددة بالانهيار قاموا بإعادة هيكلتها بتجهيزات ومكونات عصرية أحدثت طفرة عمرانية بين التقليدي والحديث داخل القصر، هذه التصميمات السكنية الجديدة أخذت على عاتقها ادماج العديد من الأسر النووية في مكوناتها وأجزائها الداخلية التي تبين مدى استقلاليتها في الفضاء الإقاماتي، يراها البعض سيرورة حتمية لابد منها للتّعايش مع الظاهرة الحضرية بأبعادها وتشكلاتها الثقافية و القيمية الحديثة .

لقد حاولنا الاقتراب من تحولات بنية الأسرة من خلال ربطها بتحولات السكن كون هذه العلاقة الجدلية بينهما تؤدي إلى تبيان هذا الخلل في التنظيم الاجتماعي للقبيلة والعشيرة وكيفية مسايرتهما للحضرية في الصحراء، عبر أنوية الأسر الممتدة التي تظهر عجزها في احتواء أفرادها داخل المسكن المشترك في ظل هذه التحولات المؤثرة على جملة الخيارات الثقافية للأفراد والجماعات، وكذلك الحتميات الإيكولوجية المتعلقة بتآكل معظم السكنات التقليدية وعدم قدرة أجزائها الضيقة ومكوناتها البسيطة في استيعاب حجم البنية الأسرية وتطلعاتها الثقافية والاقتصادية، فالكثافة السكانية المتزايدة في هذه المجموعات الاجتماعية المتعايشة في القصر العتيق، أدت إلى خروج الكثير من قاطنيه نحو غابات النخيل :

الصورة رقم (01) : توسع النسيج العمراني خارج أسوار القصر العتيق

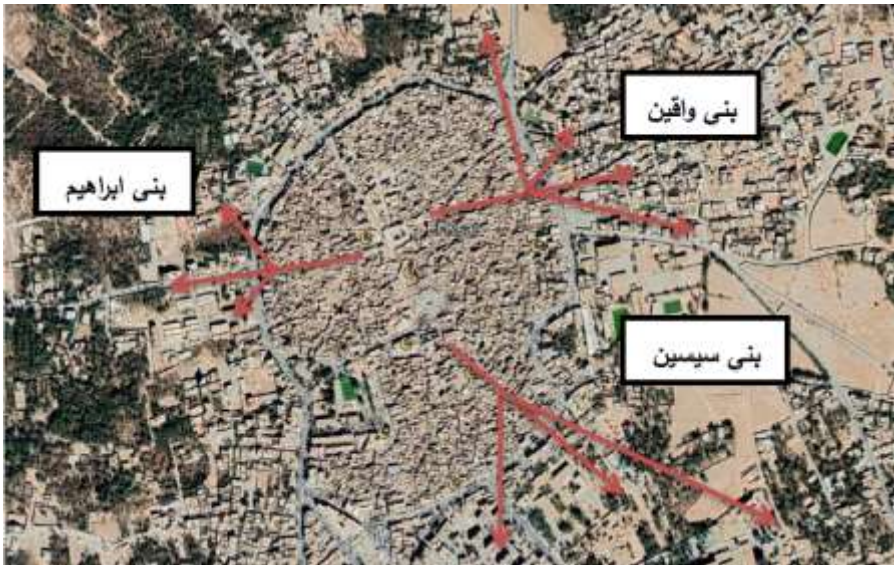

المصدر : إنجاز الباحث (الاعتماد على تطبيق Google Earth Pro، يوم 2019/04/03)

لقد نتج عن هذا الخروج بناء وحدات سكنية خاصة في أرض الجد الأكبر أو الوالد أو الأب، تخضع هذه التقسيمات إلى القوانين العرفية للجماعة في الحيازة، والملكية، والميراث، في تخطيط الفضاءات العمرانية داخل الواحة وخارجها، هذه الهياكل المادية الجديدة ذات نمط حديث تتنوع بتنوع الدخل الفردي (سكنات حديثة ، سكنات ذات طوابق، سكنات فاخرة "فيلا")، المدينة اليوم تتوفر على أحياء سكنية راقية، فيلات منجزة بهندسة مختلفة، كان الهاجس الكبير في إنجازها هو إبراز الثروة و تتطور المضاربة العقارية التي تؤدي إلى ظهور أحياء متمايزة اجتماعياً وعمرانياً (عبد القادر خليفة، 2010، ص 136)، نشاهدها على امتداد القصر في شكل تجمعات سكنية ذات طابع هندسي حديث ومختلف عن التصميمات الهندسية التقليدية في أجزائها ومكوناتها، هي إشارة واضحة على بداية زحف وتوسّع النسيج العمراني على حساب الأراضي المخصصة للفلاحة، يقول (لطفي، مبحوث) :

"...كنا نقطن في القصر العتيق، ونشأنا فيه وترعرعنا في مكوناته وأجزائه، أما الآن نحن نقطن خارج أسواره، في الأماكن المخصصة للنخيل "الواحة" (مقابلة مع مبحوث، أفريل 2017) .

2. نسق البدو المتمدنين من الأسرة الممتدة إلى الأسرة النووية :

سبق وأشرنا في محطاتنا البحثية المتعلقة بمراحل تمدن القبائل البدوية في حوض ورقلة، إلى تحولات أنماطها الحياتية وأنشطتها الثقافية التقليدية، انطلاقاً من ممارسة التجارة والرعي ثم زراعة النخيل، ثم بعد ذلك توجهت هذه القبائل إلى الاندماج في الوظائف والمهن الحديثة ذات الدخل الفردي المرتفع، لتحسين نمطها المعيشي عبر أوعية النشاطات الاقتصادية المختلفة التي أدرجتها سياقات الظاهرة الحضرية في حيثياتها ومفرزاتها داخل المدينة، يرى وورث "...أن تعدد العلاقات وتفاعلات الإنسان في المدينة يؤدي إلى تجزئة العلاقات الاجتماعية وإفراز وتقوية الطابع الانفصامي للشخصية الحضرية " (عبد الرحمن المالكي، 2016 ، ص 157)، وهذا ما نحن بصدد دراسته الآن كموضوع غاية في الأهمية يجبرنا على فحص هذه البنيات القبلية وقياس مدى تأثرها بالسلوكيات الحضرية لأفرادها من خلال هذا الاندماج اللامشروط في وسطها الحضري ، لذلك نرى أن الاقتراب من استراتيجيات الجماعة الاجتماعية في فضاءاتها السكنية يمكن لها أن تحل هذه المعضلة التي نواجهها في بحثنا الإمبريقي نظراً لشح المصادر الملمة في هكذا طرح، مروراً بتقنية الاستمارة و التي نعتبرها مذكرة الباحث اليدوية التي تمكننا من تدارك النقائص المعرفية التي بقيت عالقة في ذهننا بعد اجرائنا للمقابلات، من خلال هذا الجدول استطعنا على الأقل تحديد بنية الأسرة في فضاءها السكني مستعينين في ذلك على عدد لابأس به من المبحوثين قصد فهم وتوسيع أطر وارتكازات هذا الإرث الإمبريقي في تفكيكه لفحوى الظاهرة الحضرية الصحراوية.

جدول (02): بينة الأسرة في مجالها السكني الصحراوي

نوع الأسرة في مجالها السكني	الأسرة	النسبة %
أسرة ممتدة مكونة من (أب + أم + أبناء متزوجون) يشتركون في نفس المطبخ	8	11.42
أسرة ممتدة مكونة من (أب + أم + أبناء متزوجون) وجود أكثر من مطبخ	14	20
أسرة ممتدة مكونة من (أب + أم + أبناء متزوجون + أحد الأقارب خال (ة) ، عم (ة))	2	2.86
أسرة نووية مكونة من (أب + أم + أبناء غير متزوجون) في منزل مستقل	42	60
غير محدد	4	5.71
المجموع	70	%100

المصدر : تحقيق ميداني، تقنية الاستمارة (2017 إلى غاية 2019)

إن هذه العشائر الصحراوية تأخذ أشكالا أكثر تعقيداً في بنيتها الطبقية وركائزها المؤسساتية في مكونات تنظيمها الاجتماعي داخل المدينة (تنظيم/سوء تنظيم) الذي يحدد سيرورة الأسر الممتدة في احتواء الأسر الحديثة (النووية) ضمن هيكلها الإقاماتي المشترك والتي نلاحظها في كل من أماكن تواجد عشائر أولاد نصير بني حسن وأولاد تمان وولاد أحمد في النسيج العمراني لقبيلة المخادمة، وعشائر كل من الخرافة ومرزاق وفطناسة وولاد زينة في التقاطعات العمرانية الخاصة بأحياء سعيد عتبة، إلا أن عشائر أولاد عرينة والجنادة وبني مرزوق وولاد ساسي في مناطق الرويسات وبني ثور تملك بنى أكثر تفتتاً وانحلالاً في الوسط الحضري .

إن ظاهرة المجتمع الحضري الاستهلاكي وما صاحبها من ظهور الهيئات والمؤسسات الحكومية الاقتصادية، والاجتماعية، في قطاعاتها المختلفة في كل من الصحة، والتعليم والصناعة، والتجارة، لأمر جدير بالاهتمام في تحليلنا لهذا الجانب من الطرح، الذي يصب في معرفة تأثير هذه الأنشطة الجديدة، التي تحتضنها المدينة في ضوء تنوع الحرف والمهن، والوظائف الحكومية، والخاصة، في خلق ما يعرف بالتمايز

الطبقي داخل هذه المجموعات البدوية الصحراوية، تزامناً مع ظهور النخب الاجتماعية الجديدة بعد توافد المهاجرين إلى المدينة، هنا يمكن أن نعتبر المدينة بالنسبة للبدو المتمدنين مختبر اجتماعي، ثقافي، واقتصادي، يُمَكّن الأفراد والجماعات من اكتشاف ذواتهم وتحقيق طموحاتهم في نمطهم المعيشي الحضري، نظرا لما تقدمه المدينة من حوافز مختلفة يُغذيها التضامن العضوي في شكل علاقات ثانوية وعقلانية بين الأفراد في سلوكياتهم وتفاعلاتهم اليومية "... إن الأسرة النواتية تخضع لسلطة الفرد ولقوة عمله ولقدرته الاقتصادية والفردية ولحريته في اتخاذ قراراته الشخصية وهذا هو واقع نمط البيئة الصناعية " (عباس، محمود مكي، 2007، ص 55) فتحول الأسر الممتدة إلى أسر نووية لدى البدو المتمدنين هو ترجمة لانسجامهم وتكيفهم مع السلوك الحضري كنمط ثقافي يعزز تماسك واستقلالية هذه الأسر في فضاء سكني خاص، يمكن لنا ملاحظته عبر ديناميات النسيج العمراني التي يظهر أغلبها في شكل سكنات ذات طوابق، يرى أصحابها أن هذ النمط السكني له القدرة في الحفاظ على النسق القرابي والاجتماعي من خلال دمج مجموعة من الأسر في مكوناته وأجزائه الحديثة، تتمتع هذه الأسر بحيز من الحرية والخصوصية في ممارساتها ونشاطاتها داخل المنزل (مطبخ مستقل، فناء خاص، حمام خاص، صالون خاص لاستقبال الضيوف هذه الرغبة في الاستقلالية، هي مبدأ فاعل للعمل البشري؛ لأنه يشير إلى الميل الضمني لدى البشر لتحسين وضعهم والتقدم نحو أشياء أفضل (Ulf Himmelstrand, 1981,P223) فالتحول في بنية الأسرة ليس بالضرورة تحول في أنظمة العلاقات الاجتماعية التقليدية كون هذا النوع من التحول يخضع لعدة أبعاد منها البعد الإيكولوجي والبعد الثقافي والبعد الاقتصادي والسياسي، هذه الأبعاد تتنوع بين الاختيارات الثقافية والحتميات البيئية في استراتيجيات الأسرة في المجال الصحراوي، يخبرنا (السعيد، مبحوث) ينتمي إلى قبيلة المخادمة يسكن حاليا في حي النصر " الخفجي " رب أسرة مكونة من ثلاث أفراد الزوجة واثنان من الأولاد يعمل في شركة خاصة :

> " أنا أقطن الآن في حي النصر (الخفجي)، لي تقريبا ثمانية سنوات، كنت قبلها أسكن مع العائلة الكبيرة سكنت في الخفجي عندي تقريبا ثمانية سنوات، كنت ساكن مع الدار لكبيرة في حي المخادمة الشعبي، نظرا لضيق

المسكن قمت بشراء سكن خاص، لكنني أحاول أن أتواجد دائما في الحي القديم أين أجد عائلتي وعشيرتي هناك " (مقابلة مع مبحوث، أكتوبر 2018)

إن أغلب المبحوثين يثنون على فضل العلاقات الاجتماعية التقليدية في ضبط سلوكياتهم وتفاعلاتهم اليومية، يرونها الوعاء الثقافي والقيمي الذي يحفظ تماسك الجماعة الاجتماعية التي تنحدر من جد واحد مرورًا بالعشيرة ثم القبيلة كوعاء هوياتي، يمكنهم من الشعور بالانتماء الترابي لحوض ورقلة، إننا الآن أمام تشكلات معقدة لهذه الجماعة في سلوكها الحضري، فرغم تشظي الأسر الممتدة إلى أسر نووية بفعل التحولات الاجتماعية والاقتصادية إلا أننا نجد الآن هذه الأسر سواء كانت تعيش في فضاء سكني مشترك أو تساكنت خارج الحي تبقى خاضعة لنمط السلطة التقليدية للجماعة الاجتماعية، إنها تسعى إلى إعادة تشكيل مونوبول حضري ذو نسق قرابي يضمن تشابك العلاقات الاجتماعية في تنظيمها الاجتماعي للنسيج العمراني الحديث، الذي يحدد نمط هذه العلاقات المبنية على الاحتواء و الحميمية، نلاحظ هذه الاستراتيجيات من إعادة التنظيم حسب طوماس وزنانكي في الواقع الحضري في تجلياته وتعبيراته الآنية، حيث اتجهت الكثير من الأسر النووية التي تساكنت خارج مجالها العمراني بفعل ظروف خارجية وأخرى داخلية حتمية أو اختيارية إلى بناء سكناتهم الحديثة في حييهم القديم، نجدها في التقاطعات المختلفة لأحياء السكان المحليين والبدو المتمدنين .

خاتمة :

لاشك أن تتبع ومراقبة أثر التحولات الاجتماعية، والثقافية، والاقتصادية على بنية الأسرة وتحولات السكن، والعلاقة الجدلية القائمة بينهما، يرهق كاهل الباحثين والمهتمين بالظاهرة الحضرية الصحراوية، كون هذه الفضاءات الصحراوية تحتضن العديد من الممارسات والتفاعلات التي تسلكها الجماعات الاجتماعية في أنماطها الحياتية التقليدية والمعاصرة، كنوع من الاستراتيجيات المرنة والمعقدة في ذات الوقت في فهمها لسلوكها الحضري الثقافي والاجتماعي، الذي يختلف في معطياته وتجلياته عن السلوك الحضري للمجموعات الاجتماعية في المدن الشمالية الأخرى، هذه العلاقات الاجتماعية قائمة على مبدأ سوء التنظيم وإعادة التنظيم للمجال الصحراوي، في سعيها نحو تشكيل نماذج من المونوبول الحضري الذي يحفظ ايقاع النسق القرابي، هذه الإستراتيجيات تعيد إنتاج

ضوابط السلطة التقليدية في الممارسات الضمنية للأفراد والجماعات داخل المدينة، فالتشكل العمراني الحالي يثير العديد من التساؤلات حول مفاهيم القبيلة والعشيرة وتأثيرها في إعادة التنظيم، لذلك نرى أن تفكيكنا وتحليلنا لفحوى الظاهرة الحضرية في مدينة ورقلة تظل قاصرة يشوبها الكثير من الغموض في تفسيرنا للواقع السيوسيومجالي والسوسيوثقافي في تحولات بنية الأسرة وديناميات نسيجها العمراني .

الهوامش و الإحالات :

(1) مديرية التعمير والهندسة المعماري والبناء، زيارة ميدانية سنة 2018، مدينة ورقلة، الجزائر .

(2) محمود، عودة، أسس علم الاجتماع، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ص 130.

(3) Dorothy, Crozier, 1965, Histoire et anthropologie, Revue internationale des sciences sociales, publiée par l'Unesco , n°4, Paris, p604-605.

(4) Ulf, Himmelstrand, 1981, Innovative processes in social change: theory, method and social practice, international social science journal, Printed by Imprimerie des Presses Universitaires de France, Unesco, Paris, p241.

(5) علي حسن، الصغير، 2018، التوافق البنيوي بين النسق القرابي والمجال العمراني قصر ورقلة، الأشرف للكتاب العربي، الجزائر، ص 141.

(6) فيليب، لا بورت تولرا، جان بيار، فارنييه، 2004، إثنولوجيا أنثروبولوجيا، (ترجمة مصباح عبد الصمد)، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ص 61.

(7) عبد الرحمن، المالكي، 2016، مدرسة شيكاغو ونشأة سوسيولوجيا التحضر والهجرة، إفريقيا الشرق، المغرب، ص 157.

(8) طلعت إبراهيم، لطفي، 2007، علم إجتماع التنظيم، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ص 108 .

(9) مديرية التعمير والهندسة المعمارية والبناء، المرجع السابق .

(10) خليفة، عبد القادر، 2010، مدن الصحراء الجزائرية في تحولات، مجلة العلوم الانسانية والاجتماعية جامعة ورقلة، العدد الأول، الجزائر، ص 136.

(11) مقابلة مع مبحوث، أفريل 2017

(12) عبد الرحمان المالكي، المرجع السابق، ص 157.

(13) عباس، محمود مكي، 2007، دينامية الأسرة في عصر العولمة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ص 55.

(14) Ulf, Himmelstrand, ibid, p223.

(15) مقابلة مع مبحوث، أكتوبر 2018.